

تاريخ القبول: 2026/02/28

تاريخ الإرسال: 2024/03/07

تاريخ النشر: 2026/05/23

ظروف تطور الأساليب الاقتصادية البدائية للإنسان من مرحلة الجمع
إلى مرحلة الإنتاج خلال عصور ما قبل التاريخ:

**Circumstances of the development human primitive
economic methods from the collection stage to the
production stage during prehistoric times**

عثماني كريمة¹

جامعة قسنطينة 2 - عبد الحميد مهري (الجزائر)،

مخبر التراث الأثري وتثمينه، ¹karima.otmani@univ-constantine2.dz

الملخص:

كان على الإنسان - باعتباره كائنا حيا - توفير غذائه للتمكن من الاستمرار على قيد الحياة، فكان عليه بالتالي اعتماد أساليب اقتصادية لأجل ذلك، وضمن هذا الإطار تأتي ورقتنا البحثية هذه لتتبع الأساليب الاقتصادية التي اعتمدها الإنسان الأول لتوفير قوته، ومحاولة معرفة ظروف وأسباب تطورها.

كشفت نتائج هذا البحث أن الاقتصاد البدائي للإنسان الأول اقتصر على الاعتماد على جني وصيد ما تجود به الطبيعة من نباتات وحيوانات، خصوصا في ظل الظروف البيئية والمناخية المناسبة، والتي ساهمت في توفرها (أي النباتات والحيوانات) بشكل لم يحوجه إلى التفكير في إيجاد بدائل اقتصادية جديدة عنها، وهي المرحلة التي اصطلح عليها بمرحلة "جمع القوت"، لكن الأمور لم تستمر على منوال الظروف السابقة، كما لم يستمر اعتماد الإنسان القديم على نفس النمط الاقتصادي للمرحلة السابقة، ذلك أنه توصل لإيجاد بدائل اقتصادية جديدة، لينتقل

بذلك لمرحلة جديدة، عرفت بمرحلة "إنتاج القوت"، وذلك بعد اكتشافه للزراعة وتدجين الحيوانات، وهي المرحلة التي لاحظ الباحثون أنها كانت بعد حدوث تغيرات مناخية كبيرة شهدها العالم القديم.

الكلمات المفتاحية: جمع القوت - إنتاج القوت - الزراعة - تدجين الحيوانات.

Abstract:

Man - as a living being - had to provide his food in order to be able to continue living, and therefore he had to adopt economic methods for that. Then in this framework, our research paper comes to trace the economic methods that early humans adopted to provide their sustenance, and try to know the circumstances and reasons for their development.

The results of the study revealed that the primitive economy of the first humans was limited to relying on harvesting and hunting the plants and animals that nature provided, especially under the appropriate environmental and climatic conditions, which contributed to their availability (plants and animals) in a way that did not made him to think about a new economic alternatives, and this is the stage that was termed In the stage of "gathering sustenance", but things did not continue as the previous circumstances were. Ancient man did not continue to depend on the same economic pattern of the previous stage, because he found new economic alternatives, thus moving to a new stage, known as the stage of "production of sustenance". that was after discoveries of agriculture and the domestication of animals, which is a step that researchers noticed occurred after major climate changes occurred in the ancient world.

Keywords: gathering food - producing food - agriculture - animal domestication.

المؤلف المرسل: عثمانى كريمة،: karima.otmani@univ-constantine2.dz

1. مقدمة:

تعتبر الزراعة وتدجين الحيوانات من المصادرة الاقتصادية الأساسية والمباشرة لتوفير القوت اللازم لعيش الإنسان، غير أن هذين المفهومين - البسيطين من منظورنا الحالي - كانت من ضمن الاكتشافات الجديدة التي استغرق الإنسان الأول فيها مدة طويلة قبل أن يتوصل لمعرفتها خلال عصور ما قبل التاريخ، وعليه فإن الإشكال الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو: ما هي الأساليب الاقتصادية البدائية التي اعتمدها إنسان ما قبل التاريخ لتوفير غذائه قبل أن يتوصل لإنتاج قوته باكتشاف الزراعة وتدجين الحيوانات؟ وما هي الظروف والأسباب التي ساهمت في توصله لاكتشافهما؟

للإجابة على الإشكالية المطروحة كان لابد من جمع المادة العلمية من الأبحاث السابقة، لتتبع الظروف البيئية والمناخية التي عاش خلالها الإنسان القديم، إلى جانب ما توصلت إليه الأبحاث من خلال الشواهد المادية التي كشفت عنها الاكتشافات الأثرية بالخصوص، والتي سنعرضها فيما يلي وفق العناصر التالية:

2. أثر التغيرات المناخية على النمط الاقتصادي لإنسان ما قبل التاريخ:

اتخذ الإنسان الأول الكهوف مسكنا له خلال العصرين الحجريين القديم والمتوسط، حيث اعتمد على "القنص" و"النقاط وجمع النباتات الطبيعية" كأساليب لتوفير غذائه، وعليه، فقد اصطلح الباحثون على هذه المرحلة بمرحلة "جمع القوت" (Gathering Food)، والتي كانت تتزامن مع العصر الجليدي الذي كان يقع ضمن آخر عصر من زمن "البلايستوسن" (Pleistocen)، الأمر الذي أثر على مناطق تواجد إنسان تلك الفترة، وكذا مناطق تواجد وانتشار الحيوانات والنباتات الطبيعية التي كانت هي مصدر غذائه¹ الأساسية والمباشرة.

لكن مع ذلك تم العثور على أقدم هياكل التعمير البشري للإنسان القديم خلال نهاية عصر البلايستوسين متمثلة في أكواخ، ولكن مع بداية عصر الهولوسين تجمعت هذه الأخيرة لشكل قرى، من مثل: عين ملاحه، أبو هريرة، مريبط، وغيرها، والتي تعود جميعها إلى عصر الثقافة "النبطية"² التي انطلقت من فلسطين (من الجبال المحيطة بالقدس) واستمرت في بناء البيوت والأكواخ الكبارية الطابع، حيث ظهرت عدة قرى نطوفية، إذ اتسعت مساحتها لتشمل بلاد الشام كلها، وقد تم العثور على آثارها في حلوان المصرية، وفي العراق³، إذ أنها امتدت - على أقل تقدير - لـ "النجف" (NEGUEV) إلى ضفاف نهر الفرات، وهي تتميز بصناعة ميكروليثية مجزأة، وبالتالي فمن المحتمل أن يكونوا قد هجروا الكهوف بالنظر إليها كمستقر رئيسي على الأقل⁴.

كان من مميزات ظاهرة العصور الجليدية الأخيرة من تاريخ الكرة الأرضية غزارة الأمطار المتساقطة، لدرجة أصبحت فيها الصحاري القاحلة التي نعرفها اليوم تتمتع بوفرة المياه، مما جعل منها مناطق مناسبة لازدهار الحياة النباتية والحيوانية فيها، وبالتالي سهولة حصول إنسان تلك الفترة على الغذاء عن طريق الالتقاط والصيد، وقد استمر حاله بالاعتماد على نمط العيش هذا لآلاف السنين، وهو نمط تشابه بين جميع البشر بمنطقة الشرق الأدنى، بما فيها بلاد الرافدين⁵، فقد لوحظ تشابه للمخلفات الأثرية خلال العصر الحجري القديم في مناطق عديدة بالعراق، حيث دلت الأدوات الحجرية التي تم الكشف عنها أن حياتهم الاقتصادية كانت تعتمد على الجمع والصيد⁶، مما يعني أن تلك الظروف قد هيأت للإنسان فرصة العيش في تلك المناطق معتمداً على جمع "قوته أو صيده" حيثما حل، والتنقل باستمرار والإقامة المؤقتة في مقرات مكشوفة دون الحاجة إلى بناء أو استقرار دائم⁷.

مقابل ذلك، فإنه بعد ذوبان الجليد ورجوعه لخطوط العرض التي لا يزال متوقفاً عندها لحد الساعة - عند نهاية الزحف الأخير للعصر الجليدي بانتهاء زمن "البلاستوسين" - وذلك قبل حوالي اثني عشر ألف سنة مضت، والمحددة تاريخياً بالفترة المحصورة ما بين 11000 و 9000ق.م، شهدت حياة الإنسان نقلة لمرحلة جديدة خلال أواخر العصر الحجري القديم، فبعد بتغير الظروف البيئية واعتدال للمناخ، بدأ هذا الأخير يُغادر الكهوف، متجهاً نحو مواقع استقرار جديدة، حيث كانت تلك المواقع تتخذُ شكلَ مقراتٍ موسمية (مؤقتة) مكشوفة في العراء، وقد رافق ذلك تغيُّرٌ بسيطٌ في أسلوبِ توفيرِ غذائه، وذلك من خلال محاولاتهِ المتواضعة لاستئناس الحيوانات وزراعة النباتات البرية، لكن على الرغم من ذلك فإنه ظل يعتمد على الصيد والجمع كمصدر أساسي للعيش⁸.

لقد كان تغير أحوال المناخ سبباً في اختفاء حيوانات الصيد الكبيرة التي اعتاد الصيادون على قنصها بتعاون مجموعات منهم بأغلب المناطق، لتحل محلها الحيوانات التي تعيش في وقتنا الحاضر، وقد حفزت حالة دفاء وجفاف المناخ إنسان العصر الحجري القديم لمغادرة الكهوف والملاجئ الصخرية، والغابات للتوجه صوب شواطئ الأنهار ومصباتها، وإلى العيون والمنايع والينابيع، وكذا نحو السهول الرملية، ليبندى بذلك مرحلة استيطان جديدة في مواقع مفتوحة في تلك المناطق⁹.

كانت المواقع التي انتقل إليها إنسان ذلك العصر مناسبة للقيام بعملية الانتاج الغذائي تدريجياً، حيث كانت طبيعتها متميزة، تسمح بنمو أصناف مختلفة من الأشجار والنباتات المهيأة لحياة الإنسان وديمومته، إلى جانب توفر أنواع عدة من الحيوانات، والتي وفرت له فرصة مناسبة للقيام بعملية التدجين والزراعة، وذلك عن طريق الممارسة والمتابعة والنشاط المستمر، وهو الأمر الذي مهد لحدوث عملية انتقال جذري للتحوّل نحو حياة الاستقرار في قرى زراعية دائمة، غير أن التحوّل هذا

لم يكن بصفة فجائية، وإنما استغرق آلاف السنين، وذلك نتيجة للتغير التدريجي لعوامل المناخ والبيئة الطبيعية، وهو ما انعكس على استقرار الإنسان وتفكيره لتطوير مناحي حياته المختلفة¹⁰.

بمجرد استقرار المجموعات البشرية في قرى، فإن التطور البطيء الملحوظ على الأدوات والمنشآت يجعلهم يتحولون ويتخلون عن ممارساتهم توفير الغذاء القديمة، حيث انهم بدأوا في التخلي التدريجي عن صيد الحيوانات الصغيرة وصيد الأسماك لصالح الحيوانات الأكبر حجماً، وخلال هذه الفترة - أي في بداية الألفية العاشرة تقريباً قبل الميلاد - تم اكتشاف أقدم آثار للزراعة، على ضفاف نهر الفرات في "المريبط"، وفي الدمشقية في "أسود"، وفي وادي الأردن في "نتيف هقدود" (Nativ Hagdud)، أين ظهر إنتاج الطعام لأول مرة، ويمثل هذا النشاط أول مرحلة من العصر الحجري الحديث¹¹.

تشير الأدلة الأثرية المكتشفة في المنطقة الشمالية من العراق كذلك أنها شهدت البدايات الحقيقية للتحوّل من حياة "جمع القوت" إلى حياة "إنتاج القوت" أكثر من أية منطقة أخرى، فقد كانت منطقة الشرق الأدنى في مقدمة المناطق التي شهدت بوادر تلك المرحلة، أين تم اكتشاف الأصول البرية للحبوب التي هجنها الإنسان وكذا الحيوانات التي قام بتدجينها في بدايات العصر الحجري الحديث، وذلك خلال منتصف الألف التاسع قبل الميلاد، إذ حقق سكان هذه المنطقة تطورات مهمة فاقت أية منطقة أخرى في العالم من حيث الاستقرار السكاني والتحوّل التدريجي إلى قرى قروية زراعية ثابتة¹².

3. ظروف اكتشاف إنسان ما قبل التاريخ للزراعة وتدجين الحيوانات:

كان من الصعب على الإنسان اكتشاف الزراعة في وقت كان في استطاعة الإنسان الاستمرار على منوال حياته القديمة، ولذلك فقد لجأ إلى الزراعة بعدما قلت موارد المياه، كما وأنه اهتم إلى تهجين النبات وتدجين الحيوان بعد أن عاش مدة

جاوزت مليوني سنة من الاعتماد على صيد الحيوانات البرية والأسماك، وعلى جمع النباتات الطبيعية لتوفير غذائه، في المرحلة التي عُرِفَتْ بمرحلة "جمع القوت" - مثلما أشرنا إليه سابقاً، خلال العصرين الحجريين القديم والمتوسط، حيث انتقل بمعرفته "للتدجين" إلى مرحلة اقتصادية جديدة في حياته، قوامها "إنتاج القوت"، وذلك اعتماداً على "الزراعة وتربية الحيوانات" خلال العصر الحجري الحديث مع بداية الألف الثامن قبل الميلاد في جنوب غرب آسيا، وكان قد استغرق هذا التحول وقتاً طويلاً خلال العصر الحجري المتوسط الذي استمر بضعة آلاف من السنين¹³.

كان الانتقال من مرحلة "جمع القوت" إلى مرحلة "إنتاج القوت" بطيئاً وتدرجياً في بلدان الشرق الأدنى، وكانت الأقسام الشمالية من بلاد الرافدين من أولى المراكز في هذا المضمار، وذلك لما وفرته البيئة الطبيعية في هذه المنطقة من مناخ مناسب وحياة وفيرة ونباتات طبيعية وحيوانات وحشية، فضلاً على أن الإنسان استطاع أن يوظف تلك الظروف مجتمعةً ويفجر أول ثورة اقتصادية في تاريخ البشرية، هي "الثورة الزراعية"¹⁴.

تعد بلاد الرافدين واحدة من أقدم مناطق العالم التي جرت فيها المحاولات الأولى للتدجين والزراعة، فقد جاءت الدلائل الأولى لذلك من مواقع "زاوي جمي شانيدار" (كريم شهر) و (ملفعات)، كما وأكدت الدلائل الأثرية المكتشفة في مواقع "زاوي جمي شانيدار" أن سكان هذا الموقع قاموا بتدجين الحيوانات، وعلى الأخص منها الأغنام، في حين تعد "جرمو" واحدة من أهم وأقدم مواقع العصر الحجري في بلاد الرافدين والعالم التي جاءت منها نماذج مبكرة جداً لزراعة الحبوب، حيث كانت حنطة "Emmer" من أقدم أصناف الحبوب التي زرعت في "جرمو"، وق عُثِرَ في "جرمو" نفسها أيضاً على نوع من الشعير الثنائي الصفوف، حيث يعد هذا الأخير أقدم شعير عُثِرَ عليه لحد الآن، والذي يتميز بكبر حبوبه¹⁵.

ومن أهم المحاصيل التي تمت زراعتها بشكل عام خلال تلك الفترة، نجد: "القمح"، و"الشعير"، وذلك خصوصا في العالم القديم، بينما راجت زراعة الشعير في أوروبا بكثافة إلى جانب زراعة القمح والفلو العريض، في حين عُثِر بشمال الصين وجنوبها على بقايا الأرز، وتمت زراعة الذرة في العالم الجديد بمنطقة الكاريبي وأمريكا الجنوبية، ومحاصيل أخرى، كالطماطم والفسق، والفلو السوداني، والبطاطا¹⁶.

يعتبر العصر الحجري الحديث الذي عرفت فيه الزراعة بـ "عصر الثورة الإنتاجية الأولى في تاريخ البشرية"، وعلى الرغم من تعدد الآراء حول مكان "نشأة الزراعة"، إلا أن جميع الآراء تكاد تتفق على أن المواطن الأولى لقيام الزراعة لابد وأن تكون قد توافرت فيها ظروف بيئية لقيامها، هذا إن لم تكن البيئة وتغيراتها هي الدافع الأساسي لقيامها، حيث يعتقد بعض الباحثين أن معرفة الإنسان للزراعة واستئناس الحيوان لابد وأن ينشأ في أماكن تمتاز بتنوع الحياة النباتية والحيوانية، حتى يُمكن للفرد أن يختار منها ما يلائمه، وأن هذا المكان لابد وأن يكون متنوع التضاريس ويحتوي في الوقت نفسه على أكثر من إقليم حتى يحقق شروط تنوع الحياة النباتية فيه، كما ولابد أن يكون المزارع الأول أو البدائي قد تجنب سكن الأودية النهرية الكبرى نظرا لما تشهده من حدوث للفيضانات، والتي تتطلب نظام ري دقيق بإقامة السدود والخزانات، ولذلك فإن المناطق التي ينبغي البحث فيها عن الوطن الأصلي للزراعة يجب أن تكون في مناطق التلال والجبال¹⁷.

إن مواقع الحيوانات والنباتات البرية في حقيقة الأمر عديدة ومختلفة، وعليه فإنه لا يوجد مكان محدد يمكن اعتباره "مهد" أو "موطن الاستئناس"، غير أن أغلب الفرضيات تنتظر إلى أن جنوب غرب آسيا (إيران، تركيا قديما، العراق، فلسطين،

الجزيرة العربية) بكونها المكان الذي حدث فيه الاستئناس، مع وجود مراكز أخرى في كل من أوروبا، وأمريكا، وشرق آسيا، وإفريقيا¹⁸.

تفترض بعض الآراء إمكانية تعلم الإنسان لحصاد وطحن الحبوب البرية قبل تعلمه لبذرهما بزمان¹⁹ كما ترى آراء أخرى إمكانية أن الحبوب النابتة بطبيعتها والتي كان يجمعها الإنسان قديما كانت تسقط منها حبات وهو في طريقه من مكان النبات إلى حيث يقيم، فنبهته بذلك إلى السر الذي يكمن وراءه نمو النبات²⁰، ومن جهة أخرى هناك من يرى أن الزراعة كانت ضرورة اقتضتها تغيرات الظروف المناخية - مثلما سبقت الإشارة إليه - بعد انتهاء الحقبة المطيرة، والتي ترتب عليها تحول مساحات واسعة من شمال إفريقيا وجزيرة العرب من مروج خضراء إلى أقاليم صحراوية حل بها الجفاف التدريجي محل المطر، مما تسبب في اختفاء النباتات والحيوانات، باستثناء المناطق التي توفرت فيها القليل من المياه حول العيون والآبار، وكذا بطون الأودية الجافة، حيث يقترب مستوى الماء الباطني من سطح الأرض، أو في بعض الواحات القليلة في الصحراء، أو في مجاري الأنهار القليلة كـ"نهر النيل الأدنى"، ونهري "دجلة" و"الفرات"²¹.

كانت الحيوانات المستأنسة تعتبر مصدرا أساسيا بالنسبة للمجموعات الزراعية الأولى في العالم القديم، وعلى الخصوص منها في جنوب غرب آسيا وأوروبا، فقد عثر على عظام: الأبقار، الضأن، الماعز، والخنزير بأغلب المستوطنات الزراعية الأولى، ويوضح انتشار الأسلاف البرية لتلك الأنواع الحيوانية أن استئناس الضأن والماعز لا بد وأنه قد تم في حوالي 9000ق.م، في غرب أو وسط آسيا، ومن ثم انتشرت تلك الأنواع من هناك لبقية مناطق العالم (أنظر الخريطة رقم 01)، كما وقد تم العثور على الأسلاف البرية للأبقار والخنازير على طول منطقة "أورآسيا"، والتي من الممكن أن تكون قد استأنست في فترات متباعدة،

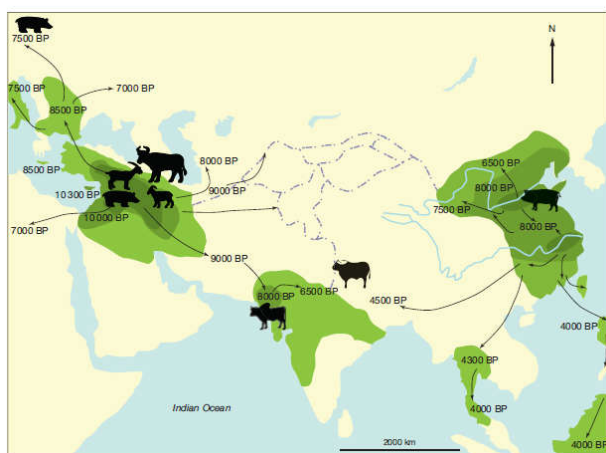
وذلك تبعا للحاجات والظروف في كل من بحر "إيجة" وشمال إفريقيا، حيث استأنست الأبقار في بحر "إيجة"، وربما كذلك إفريقيا في حوالي 6000 ق.م، أما السلف المباشر لمعظم الأبقار المستأنسة في العالم القديم فيعرف باسم "الأرُخُص" (Aurochs)، كما أن هنالك أنواعا أخرى، وذلك من مثل حيوان "الباك"، وهو ثور "التبت" الضخم، والجاموس وغيرهم²².

هنالك من الآراء من يرى بأن حرفة الرعي أو التدجين ظهرت نتيجة للتغيرات المناخية والجفاف الذي شهده العالم عقب آخر زحف جليدي، والذي اضطرت بسببه الحيوانات إلى اللجوء إلى مناطق توفر المياه، على غرار الإنسان الذي سبقها إليه، مما أدى لحدوث تآلف ومودة ما بين الفريقين (الإنسان والحيوانات) بمرور الأيام، وكان ذلك نتيجة للمعاملة الحسنة التي عامل الإنسان بها الحيوان، ليتبين للإنسان بمرور الزمن أن مصلحته تقتضي التحول لحياة الاستقرار، وأن يقوم بتربية الحيوانات ليكون في حوزته ما اعتاد الصيادون على قنصه من صيد في المناطق الخاصة بها، فكان يقوم الإنسان يحفظ أصنافا منها أو من صغارها، على غرار: الأغنام، التيوس، الأبقار، الخنازير البرية في منزله، وقد كان الدافع الرئيسي من وراء ذلك في بداية الأمر هو لغرض الاستفادة من لحومها، أو لغرض المتعة، حيث أصبح لاحقا يستفيد منها لأغراض أخرى، ك: الألبان، النقل، الركوب، النسيج، ولا يستبعد أن تدجين الحيوانات بدأ بغرض الاستمتاع بصغار الحيوانات، حيث كانت النساء والأطفال لهذا الغرض يحتفظون بها في المنازل، ومع مرور الوقت تروست تلك الحيوانات²³.

ولتتبع جذور التدجين لا بد من البحث عن المواطن الطبيعية للحيوانات التي دجنها الإنسان بعد أن كان يحصل عليها في العصور السابقة للعصر الحجري الحديث بطريقة الصيد، وقد كانت سفوح جبال بلاد الرافدين الشرقية من ضمن

المناطق التي توفرت فيها الأصول الوحشية للحيوانات والنباتات التي قام بتدجينها الإنسان، حيث تم العثور في هذه المنطقة على مستوطنات قديمة ظهرت فيها البدايات الأولى لعمليتي التدجين والثورة الزراعية، ومن بين أهم تلك المستوطنات والتي تم الاستدلال عليها استنادا للبقايا العظيمة التي عثر عليها فيها، نجد "جرمو" والتي تعتبر أحد أهم مواقع عصور ما قبل التاريخ، ليس بالنسبة لبلاد الرافدين وحسب، وإنما بالنسبة للعالم أجمع، حيث تمت فيها ممارسة عملية التدجين لبعض الحيوانات، من مثل: الأغنام، الماعز، الخنازير، كما وتعد قرية "حسونة" و"قرية يارم تبه" (النل الأول) والتي يعود تاريخها إلى الألف 06 ق.م من بين القرى الزراعية المتقدمة في مجال التدجين لبعض الحيوانات، وذلك من مثل: الأغنام، الماعز، الخنازير، كما دلت نتائج التنقيبات على وجود بقايا عظمية في قرية "أم الدباغية" التي تعود للقرن الـ 06 ق.م تؤكد قيام سكانها بتدجين الأغنام، الماعز، الخنازير، الكلاب، وربما كذلك الماشية²⁴ (أنظر الخريطة رقم 01).

الخريطة رقم (01): توضح مواقع وتواريخ المراكز الأولى لتدجين الحيوانات ذوات الحوافر ومسارات انتشارها المختلفة في آسيا خلال العصر الحجري الحديث.



مراكز التدجين الأولى باللون الأخضر القاتم.

مناطق الانتشار باللون الأخضر المتدرج.

مسارات الانتشار بالأسهم

المصدر:

Jean-Denis Vigne, 2015, p 128.

4. تقنيات الزراعة المبكرة وتدجين الحيوانات خلال العصر الحجري الحديث:

توجد العديد من الفرضيات التي تناولت مسألة اكتشاف الزراعة، والتي منها أن ذلك حدث حين أخذ الإنسان يجمع الحبوب التي تنمو طبيعياً لوحدها، فكانت تتساقط حبات منها وهو في طريقه من مكان النبات إلى حيث يقيم، فنبهته للسر الذي يكمن وراء نمو النبات، أما بخصوص التقنيات البدائية المعتمدة في الزراعة فاستناداً لما ذكره "ول وايريل ديورانت" فنجد منها:

أ- الأسلوب المعتمد من قبل أفراد قبيلة "جوانج" الذي يعتمد على إلقاء البذور في الأرض وتركها لتتبع طريقها لتنمو لوحدها.

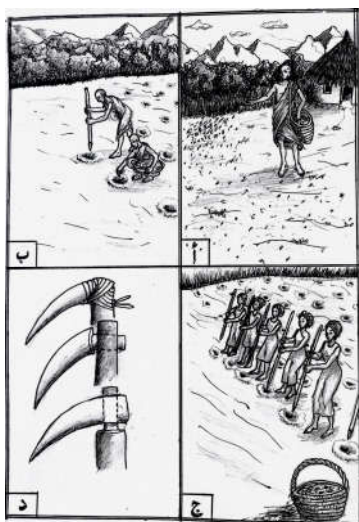
ب- أسلوب أهالي "بورنيو"، والذي يعتمد على وضع الحب في حفر صغيرة يقومون بحفرها بواسطة عصاة مدببة خلال سيرهم بين الحقول، حيث كانت تعتبر تلك العصاة (الحافرة) من أبسط أدوات الزراعة التي عرفها الإنسان.

ج- كما لاحظ الرحالة الذين قاموا بزيارة جزيرة "مدغشقر" - منذ سنوات ليست بالبعيدة - أن نساءها كانوا يعتمدون على تلك العصاة المدببة نفسها في الزراعة، بيد أنهم كن ويقفون على شكل صف واحد في انتظار إشارة البداية، ليبدأن بالقيام بحفر الأرض بعصيهن تلك، حيث يقمن بقلب التربة ووضع البذور، ومن ثم يقمن بتسوية التربة بواسطة أقدامهن من جديد، لينتقلن بعدها لمباشرة العمل في الخط الموالي.

د- تلت هذه المرحلة اعتماد أدوات زراعة أخرى في حراثة الأرض مثل الفأس، وذلك بالقيام بتركيب عظمة بالعصى الحافرة في قطعة أخرى مستعرضة لتكون صالحة لضغطها بالقدم (أنظر الشكل رقم 01).

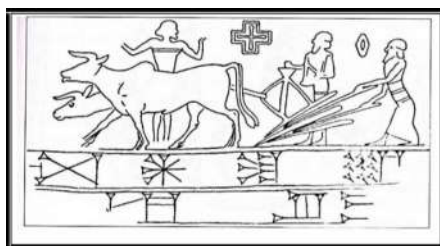
بعدما عرف الإنسان حرفة استئناس الحيوان وبعد اكتشافه المعادن، قام بصناعة أدوات أثقل من سابقتها، حيث كبرت الفأس لتتحول إلى محراث يضرب في الأرض بصورة أعمق مما كانت عليه ضربة الفأس سابقا، وهو ما مكنه من اكتشاف خصوبة الأرض الدفينة، أين قام بزراعة أنواع أخرى من النباتات كانت تستعصي عليه من قبل ²⁵(أنظر الشكل رقم 02).

الشكل رقم 01: تمثيل لتقنيات الزراعة البدائية وفقا لوصف "ول وايريل ديورانتي".



المصدر: من إعداد الباحثة.

الشكل رقم 02: يمثل محراث البذارة في بلاد الرافدين.



المصدر: أحمد كاظم طاهر وفاتن منصور محمد، 2019، ص 380.

أما في شمال بلاد الرافدين فقد تثبتت ممارسة الحياة الزراعية اعتمادا على مياه الأمطار وكان ذلك قبل حوالي 10 آلاف سنة، وكان ذلك حين بدأ عصر نو تكيف ثقافي جديد عرف بعصر "الزراعة البدائية"، ومن أهم مواقعه تلك نجد: "كريم شهر"، "زاوي جمي شانيدار"، "ملفغات"، "كرد جاي"، ثم تلاه عصر "قرى زراعية بدائية أولى"، تمثل في مواقع "جرمو"، "شمشارة"، "تمر خان"، ومن ثم "عصر قرى زراعية متطورة"، تمثل في أدوار: "حسونة"، "سامراء"، "حلف"²⁶.

ويلاحظ أن الأدوات والآلات المعتمدة للزراعة في بلاد الرافدين كانت مخصصة بحسب لطبيعة المهن الزراعية، وقد كانت جميعها مرتبطة بالعملية الزراعية العامة، فنجد منها المخصصة لعزق الأرض، وحرثها، وبزرها...، وعلى العموم يمكن تصنيفها إلى ثلاث أنواع، هي:

-آلات الزراعة: وقد استعملت هذه لغرض تهيئة الحقل وزراعته، ومنها نجد: الفأس، المحراث، المسحاة، المسلفة.

-آلات السقي: حيث كان السقي يتطلب السقي أنواع من الأدوات، كانت تختلف باختلاف ارتفاع وانخفاض الأرض المزروعة، ومنها نجد: الدلو، الدالية، الكرذ أو البكرة، الناعور (الناعور المائي-الناعور الحيواني، المجرفة.

-آلات الحصاد: من مثل: المنجل، الجرجر، المذراة، التبليّة، وأدوات أخرى متنوعة²⁷.

أما بخصوص عملية تهجين النبات وتدجين الحيوان في الحقبة الواقعة ما بين حضارة "كريم شهر" و"جرمو" فيعتقد بعض الباحثين بأن المزارعين الأوائل تمكنوا من زراعة كل من الحنطة والشعير في الأراضي المرتفعة فقط، وذلك نظرا لملائمة البيئة الطبيعية لتلك المنطقة لزراعة هذين النوعين من النباتات، فضلا عن وجود الحنطة البرية بصورة طبيعية في تلك المنطقة، بينما كان الشعير البري قد انتشر في

منطقة واسعة امتدت من أواسط آسيا وإلى غاية المحيط الأطلسي، ويشير الباحثون كذلك إلى أن المزارعين الأوائل ربما وجدوا أنه من المفيد نقل الحنطة من منحدرات الجبال إلى أراضي سهلة ذات بيئات طبيعية ملائمة، قريبة من مصادر المياه وإلى مناطق أكثر ملائمة لعيش الإنسان، وتعتمد في نموها على مياه الأمطار التي تسقط بكميات كافية خلال فصلي الشتاء والربيع²⁸.

وكانت كثير من النباتات التي نعرفها اليوم قد تم استئناسها أول الأمر في أحد المراكز المنفصلة جغرافيا، والبعيدة عن بعضها البعض، وعليه فإنه يمكن اعتبار كل واحدة منها مركزا للاستئناس، حيث أننا نجد في بعض المناطق على غرار: أمريكا الوسطى، الشرق الأدنى، شمال الصين مخلفات محفوظة لبقايا من النباتات، من مثل: القمح، الشعير، الأرز، الدرة، والتي تعتبر دلائل مباشرة على زراعة أنواع محددة من النباتات في تلك المناطق، في حين اعتمد في مناطق أخرى من مثل: الأمازون وبعض المناطق من إفريقيا على زراعة المحاصيل الدنية وذات الجذور، غير أن علم الآثار عجز عن تسجيل التاريخ المبكر للزراعة بهذه المناطق، ذلك نظرا لافتقد تلك المناطق لزراعة الحبوب الصلبة أو "الأنوية" (جمع أنية) المضادة للفساد²⁹، ذلك أن تطور الزراعة عبر العصور يمكن فهمه من خلال دراسة بقايا النباتات المزروعة والحشائش الموجودة في رواسب المواقع الأثرية، وذلك فيما إذا توفرت الشروط الملائمة لحفظها والتي يمكن أن تصل لآلاف السنين، حيث يمكن أن تقينا الأدلة الأثرية بوضع قائمة لأنواع النباتات المزروعة خلال فترات مختلفة³⁰.

هذا، ويعتقد أن الزراعة تطورت في مناطق مختلفة من العالم القديم، وكان ذلك خلال وقت واحد تقريبا، في الشرق الأدنى أو في جنوب غرب آسيا في حوالي 8000 ق.م، والصين في حوالي 6000 ق.م، وأمريكا الوسطى في حوالي الألف 07 ق.م، وقد تمت زراعة أنواع مختلفة من النباتات في كل واحدة من تلك المناطق،

وذلك من مثل: القمح، الشعير، الحبوب، في الشرق الأدنى وأوروبا، والأرز والذرة في جنوب غرب آسيا، وإلى جانب تلك الأصناف تم استئناس أنواع أخرى من النباتات، وذلك بهدف الاستفادة منها في أغراض أخرى، على غرار نبات "الكتان"، وذلك بغرض الاستفادة منه في صناعة الملابس والمنسوجات³¹.

أدرك الإنسان من خلال ملاحظته للكائنات المختلفة التي تعيش في الطبيعة لفن "التحوط للمستقبل" أي التخزين الطعام احتياطا لفترات الشدائد، وتعلم واستوعب فكرة الزمن، من خلال ملاحظته للطيور النقارة وهي تخزن البندق في الشجر، والنحل وهو يخزن العسل في الخلايا، وأدرك - وربما كان ذلك الإدراك بعد آلاف السنين قضاها في همجية لا تعرف للحبيطة معنى - فكرة تخزين الطعام للمستقل، وقد أوجد لأجل ذلك طرقا مختلفة، وذلك من مثل: حفظ اللحم عن طريق تدخينه، وتمليحه، وتبريده، وبنى أهراء للغلال لحفظها من المطر والرطوبة والحشرات والللصوص، واستهلاكها في أوقات السنة العجاف³².

4. خاتمة:

من خلال ما سبق يتضح أن الظروف البيئية والمناخية بالخصوص لها دور مهما في تحديد النمط الاقتصادي للإنسان ما قبل التاريخ، إذ أنه بعد انحسار الجليد نحو المناطق الشمالية منه، تحولت المناطق الجنوبية إلى مساحات جافة، قليلة النباتات والحيوانات، مما اضطرها بما فيها إنسان تلك الفترة للتجمع حول المسطحات المائية، وعلى ما يبدو فإن ذلك عمل على تكوين ألفة بين الإثنين سمحت فيما بعد باستئناس أنواع منها وتهجينها، حيث لوحظ تحول أسلوب اقتصاد الإنسان بعد ذلك من مرحلة "الجمع" إلى مرحلة "الإنتاج"، وعليه يمكن القول أن ذلك التغير المناخي كان له دور مهم في تحفيز الإنسان للتفكير في إيجاد حلول بديلة عن الأسلوب الاقتصادي السابق إلى أسلوب جديد يضمن له توفير قوت لاستمرار على قيد الحياة، غير أن ذلك لم يكن بصورة فجائية -بطبيعة الحال - وإنما تطلب منه فترة طويلة ليتوصل لذلك، حيث أن ملاحظته لعملية النمو الطبيعي للنباتات مكنه

من اكتشاف سر نموها في النهاية وذلك بعد القيام بعدة تجارب لزراعة أنواع مختلفة من النباتات وكذا تهجينها.

5.المراجع:

¹. حسين يوسف حازم النجم، اقتضا القرى الزراعية خلال العصرين الحجريين الحديث والمعدني في العراق، أطروحة دكتوراه فلسفة في اختصاص التاريخ القديم، جامعة الموصل، 2006، ص 29.

². Daniel HELMER, Collection préhistoire : La domestication des animaux par les hommes préhistoriques, Ouvrage publié avec le concours, MASSON du Centre national des lettres, Paris ,Milan ,Barcelone ,Bonn, 1992, p 15.

³. خزل الماجدي، تاريخ القدس القديم منذ عصور ما قبل التاريخ حتى الاحتلال الروماني، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، 2017، ص 33.

⁴. Daniel HELMER, Op.Cit , p 15.

⁵. عامر سليمان إبراهيم وعبد العزيز إلياس سلطان، البيئة الطبيعية وأثرها في الأنشطة الاقتصادية الأولى للإنسان في بلاد الرافدين، آداب الرافدين، العدد 4/44، 2006، ص 1644-1645.

⁶. حسين يوسف حازم النجم، المرجع السابق، ص 31.

⁷. عامر سليمان إبراهيم وعبد العزيز إلياس سلطان، المرجع السابق، ص 1645.

⁸. حسين يوسف حازم النجم، المرجع السابق، ص 31-32.

⁹. عامر سليمان إبراهيم وعبد العزيز إلياس سلطان، المرجع السابق، ص 1648.

¹⁰. حسين يوسف حازم النجم، المرجع السابق، ص 32.

¹¹. Daniel HELMER, Op.Cit, p 16.

¹². حسين يوسف حازم النجم، المرجع السابق، ص 33.

¹³. عامر سليمان إبراهيم وعبد العزيز إلياس سلطان، المرجع السابق، ص 1647-1651.

¹⁴. المرجع نفسه، ص 1649.

¹⁵. المرجع نفسه، ص 1648-1649.

¹⁶. محمد رشدي جرابية، ملامح الحياة الاجتماعية خلال عصور ما قبل التاريخ، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية-جامعة الشهيد حمة لخضر-الوادي، العدد 21، 2017، ص 232.

¹⁷. عامر سليمان إبراهيم وعبد العزيز إلياس سلطان، المرجع السابق، ص 1650.

¹⁸. <https://faculty.ksu.edu.sa/sites/default/files/425%20Full.pdf>

¹⁹. جرابية محمد رشدي، الصحراء الجزائرية خلال العصر الحجري الحديث (100ق.م-1000ق.م)، مذكرة ماجستير في التاريخ القديم تخصص تاريخ الحضارات القديمة، قسم التاريخ والآثار، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة منتوري-قسنطينة، 2007-2008، ص 42.

²⁰. ول وإيريل ديورانت، قصة الحضارة: نشأة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمود، ج 1، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، جامعة الدول العربية، تونس، د.ت، ص 16.

²¹. عامر سليمان إبراهيم وعبد العزيز إلياس سلطان، المرجع السابق، ص 1651.

²². <https://faculty.ksu.edu.sa/sites/default/files/425%20Full.pdf>

²³. عامر سليمان إبراهيم وعبد العزيز إلياس سلطان، المرجع السابق، ص 1653.

²⁴. المرجع نفسه، ص 1654-1655.

²⁵. ول وإيريل ديورانت، المرجع السابق، ص 16-17.

²⁶. عامر سليمان إبراهيم وعبد العزيز إلياس سلطان، المرجع السابق، ص 1652.

²⁷. أحمد كاظم طاهر وفاتن منصور محمد، الآلات والأدوات الزراعية في بلاد الرافدين، مجلة الآداب، العدد 129، 2019، ص 358-368.

²⁸. عامر سليمان إبراهيم وعبد العزيز إلياس سلطان، المرجع السابق، ص 1648-1649.

²⁹. <https://faculty.ksu.edu.sa/sites/default/files/425%20Full.pdf>

³⁰. Olivier Mermod, L'évolution de l'agriculture à travers les âges en Valais et en Suisse : bref survol, Bull. Murithienne, 122, 2004, p 50.

³¹. <https://faculty.ksu.edu.sa/sites/default/files/425%20Full.pdf>

³². ول وإيريل ديورانت، المرجع السابق، ص 17.